الوصول إلى الليطاني

هنادي العنيس

الوصول إلى الليطاني

مجموعة قصصية

قنديل | Qindeel
للصحافة والنشر والتوزيع

Arrival at Litani River

Hanadi Al-Onais

(Series of Stories)

الوصول إلى الليطاني

هنادي العنيس

مجموعة قصصيّة

© 2019 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلا ف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-10- 01-9989439 تاريخ 2019/10/20

ISBN: 978 - 9948 - 36 - 917 - 2

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2019

الطبعة الأولى: تشرين الأول / أكتوبر 2019 م – 1441 هـ

أُنجزت هذه المجموعة القصصية بإشراف

القاص إسلام أبو شكير

في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

المحتويات

على درب المعرفة	11
الأربعاء الأكثر حزناً	13
في انتظار هديل	19
هذا السعال لا يعجبني!	23
من نسعف أوّلاً؟	25
الوصول إلى الليطاني	31
طينة زوجتي السابقة	35
أتعبني دور المخلصة	43
في الطريق إليكِ	49
لا وقت لي	53
هروب سهل	57
بلا مسمّيات	59
في لحظة واحدة	61

على درب المعرفة

استمراراً على نهجها الذي خطته لنفسها، يسر **مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة** أن تخرج لعشاق الكتاب والمعرفة حصيلتها الجديدة من ثمار برنامج دبي الدولي للكتابة، بفئات الترجمة والقصة القصيرة وأدب الطفل، التي خرَّجت أقلاماً نفخر بأنهم نهلوا من الخبرات التي أهَّلتهم ليأخذوا مكانهم ومكانتهم في قائمة الكتَّاب، ويثروا المكتبة العربية بنتاجاتهم الأدبية، حيث أضحت هذه الدورات مفتاحهم لولوج عالم الكتابة الإبداعية.

لم تكن بداية **برنامج دبي الدولي للكتابة** إلا خطوة أولى عزمت المؤسسة من خلالها على الوصول إلى الهدف المنشود، وهي تتطلع بكل ثقة إلى أنها ستنتج أفضل الثمار، وها هم منتسبو البرنامج يفخرون بخلاصة معارفهم وهي تلبي شغف القراء، وتشق طريقهم الإبداعي لصقل أقلامهم، لتكون هذه الإصدارات أول قطرات الغيث التي ستحمل، بلا ريب، وابلاً من الإصدارات اللاحقة، أسوة بمن سبقهم من خريجي دورات البرنامج، الذين أضحى عدد منهم خبراء ومستشارين، وحصدت مؤلفاتهم جوائز مرموقة.

لقد خضنا التحدي بكل اقتدار، وحققنا جزءاً من أهدافنا محلياً وإقليمياً؛ ونحن نتطلع من خلال الدعم اللامحدود الذي يوليه لمبادراتنا سمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم، رئيس المؤسسة، أن نخدم المعرفة وطلابها، ومبتغانا في ذلك أن نحقق تطلعات قيادتنا الرشيدة التي تجاوزت الحدود لتحمل همَّ الأمة العربية والإسلامية من خلال سعيها الدؤوب لاستثمار عقول شبابها ومواردها البشرية ليحققوا النهضة لأوطانهم ويكونوا يد بناء وارتقاء ونماء.

لا يسعنا، ونحن نخرج ما في جعبتنا من جديد البرنامج، إلا أن نتوجه بأعمق الشكر والتقدير لكل من أسهم في نجاح المبادرة بمخرجاتها وفئاتها؛ إذ لا يمكن لمشروع بحجم برنامج دبي الدولي للكتابة أن يبلغ ما بلغه إلا بالتكاتف والتعاون المشترك، ونخص بالذكر المشرفين والمدربين الذين لم يبخلوا بمعارفهم وتجاربهم وخبراتهم، ليثروا بها معارف المتدربين الذين أثبتوا جدارتهم وأصروا على خوض تجربتهم الإبداعية بكل عزم وإصرار.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي

لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

الأربعاء الأكثر حزناً

وصلت إلى بيتي منهكة تماماً، بعد أسبوع مليء بكلمة «ليس هناك الكثير من الوقت لإنهاء أعمال لا معنى لها». استقبلني المعطف المعلق على ظهر الكرسي، وأنا لا أتمنى أكثر من سرير ومشروب دافئ يساعدني على النوم، في شقة تطنّ فيها ألف ذبابة سوداء، وبعض من كتب مكومة في الزاوية لا يقرؤها أحد.

ثمة حذاء متعب مقلوب باتجاه السقف، ملابس داخلية مجتمعة في كومة كبيرة قرب باب الحمام، وبريد ينتظر أن أفتحه على الباب؛ لا يزال كل شيء مثلما تركته.

أزحت الستارة، وعلى الرغم من ذلك، بقيت الأضواء خافتة، يفوح المكان برائحة الغبار والورق، مثلما يفوح، بعض الشيء، بالشمع ورائحة العرق.

إنه منتصف ليلة الأربعاء، يهطل في الخارج مطر خفيف، بينما أحاول أن أمنح نفسي جرعة صحية من الوقت الهادئ مرة واحدة في هذا اليوم على الأقل.

أخلع سترتي القديمة وسروالي المهترئ، أضع أسطوانة في الغرامافون، أرفع الصوت قليلاً، أدير جهاز التلفزيون، يعاندني هو الآخر ويبث صوتاً دون صورة، أو صورةً دون صوت، للقطات مشوشة بالأبيض والأسود. بينما أتصفح الجريدة بمشاركة معزوفة لموسيقى ميت، وأطمئن نفسي مرة أخرى أن صفحة الوفيات فيها لا تزال خالية من اسمي.

البرامج التلفزيونية مملة، وكومة الورق هذه لن تنفع إلا بمسح الزجاج، والأسطوانة ليست أفضل منهما على الإطلاق، استمعت إليها قبل ذلك عشرات المرات. أما ذهني فمزدحم بتصورات كثيرة حول قطعة أدبية، أمضيت طريق العودة كله في محاولة تدوينها على ورقة «كلينيكس» استهلكتها في وقت سابق.

أربط شعري إلى الخلف على هيئة ذيل حصان مستقيم وبشع، أشعل سيجارة أقسمت أنها ستكون الأخيرة، أجذب منها الدخان بسخاء، أعكر به سماء الغرفة، وأداعب سحابة ظل على الجدار. فراشي يقهقه من الداخل فجأة، ولا أدري

لـمَ يدفعني الأمر للضحك على النحو ذاته بصوتي الرجالي المبحوح من كثرة النيكوتين.

نهضت من مكاني لأدير مروحة الهواء، امتلأ المكان بأزيز مكتوم. بدأت أفتش في ذاكرتي عن إشارات، لكني لم أكتشف شيئاً، لقد تركت ورائي أشياء عديدة ورجعت للبحث عنها. في هذه المرحلة، لربما أنا وحيدة جداً. أحاول أن أتذكر أين توقفت عن متابعة حياتي وضيعت حماستي، كل هذا من أجل ألا يتساءل أحد عن مصدر النقود التي أسدد بها أجرة المكان وغير ذلك من الأمور!

أحمل جسدي إلى الداخل وأريحه على الكنبة، الغرفة تدور، وكالعادة أحتاج كما أعتقد إلى نوم كثير، أمصّ إبهامي وأضمّ أعضائي بهدوء، بينما عيناي سارحتان بألبوم صور كنت قد نسيت وجوده خلف الأباجورة. يحمل في غلافه صورة أزهار ميتة محشورة في مرطبان مربى، وشكلاً لمربع صغير، يضم الكثير من الصور الفوتوغرافية التي من الممكن أن أعتبرها اليوم عائلتي الممتدة.

ألحس سبّابتي، أقلب صفحاته ثخينة الأطراف بفعل آلاف الأصابع السابقة، أرفع قدمي عالياً وأقرأ التواريخ خلفها. أحياناً كثيرة تراودني الرغبة في التخلص منه، كوني حقاً

لا أرغب في استعادة هذا كله، فلم عليّ تجميد اللحظات الفائتة والبحث عن أثرها في كل مرة؟

أتوقف بين الصورة والأخرى، هناك شعور دائم بأن شيئاً ما قد ضاع مني، أفتش عن شكلي القديم في الأوراق، تتغير الوجوه وتتوالى الصور لبشر بأشكال مضطربة. سرَتْ رغبة بداخلي في استخراج الصور السنوية لي بالمدرسة ومشاركتها أول الأسبوع مع إيلياء، بما أن بناتها الثلاثة على بعد خطوة من السنة الدراسية الجديدة، وسيكون من الممتع التحدث وقت الغداء عن ذكريات كهذه. غير أني لم أجد أي واحدة منها. ذلك أمر فظيع، ألا أمتلك أي صورة لي مع من درست معهنّ في عصر سمته الصورة الفوتوغرافية، كانت مفارقة بالنسبة لي غير مفهومة.

أخذت أستحضر بهدوء عالماً فقدته بعد أن قضيت الكثير من الوقت في المدارس الحكومية؛ أتنقل بينها، ومع بداية كل سنة تختم شهادة المرحلة التي اجتزتها بعبارة: ناجحة وتنتقل إلى الصف التالي. هكذا مرت اثنتا عشرة سنة دراسية من عمري، عشت فيها مع عائلة لها دخل محدود، محدود جداً لو أردت أن أكون أكثر إنصافاً، ولم تكن أحلامي الصغيرة لتتحقق أبداً مهما سهرت ليلاً لأحصي كم يوماً عليّ أن أجوع لأحصل على الصورة

الجماعيـة لـي هـذا العـام. كمـا لـو أن الفقـر يبحـث عـن الأطفـال فـي كل المنـازل!

بعد اثنتي عشرة سنة، لا أمتلك أي واحدة منها.

كانـت القوانيـن صارمـة فـي تلـك اللحظـة، مـن الصعـب أن أتذكـر مـاذا كنـت أقـول، أو أفعـل، أو بمـاذا كنـت أشـعر وأنـا مصابـة بالملـل. كثيـراً مـا كانـت تخـرج كلمـة (حسـناً) مـن فمـي، قبـل أن أعـرف حتـى الأمـر، فـي حيـن كنـت أعنـي (لا) بالفعـل، سلسـلة طويلـة مـن لا لا لا لا.

كان علـى الجميـع أن يحضـر فـي أبهـى حلـة، وأن نبتسـم لعدسـة رجـل غريـب ينطـق الكلمـات الإنجليزيـة وكأنهـا أحـرف عربيـة، يـزم شـفتيه علـى شـكل ابتسـامة غامضـة، مثـل شـخص يحـدث نفسـه، ويقطـب حاجبيـه عوضـاً عـن الصـراخ فـي وجوهنـا، ولا حتـى المزيـد مـن كلمـة «دقيقـة واحـدة فقـط»، لننتهـي مـن الاصطفـاف بسـرعة كـي يوثـق اللحظـة بضغطـة زر ويرحـل.

اعتقـدت لوهلـة بأننـي أمتلـك خيـار هـذه اللحظـة تحديـداً، حيـث يصطـفّ كل شـيء فجـأة بشـكل مثالـي تمامـاً. إلا أنـي توقفـت عـن التفكيـر، فيمـا أخـذت أبحـث فـي جيوبـي عـن آخـر القطـع المعدنيـة فيـه. حملـت مسـؤولية إيجـاده فارغـاً بهـزة كتـف

غير مفهومة، حاولت جهدي أن أكبح عضلات ساقي التي كانت تهتز، ومسحت الانفعال عن وجهي ما استطعت.

كنت في المكان الذي كان من المفترض أن أكون فيه بالضبط، أعصر الأصوات في عقلي، وأنتظر أن أقوم بضربة قوية بقدمي في نهاية هذا العرض!

طأطأت رأسي؛ لأنه كان بإمكاني أن أتكلم بصعوبة، أحسست بشيء يشبه المطر داخل حلقي، تمتمت: لا بأس، أريد أن أكون في آخر الصف هذه المرة أيضاً. أصبحت لا أنظر إلا إلى الأمام، وفي لحظة لم أعد أرى شيئاً، لبست وجهاً ذا ملامح ساخرة لا يظهر منه إلا أسنانه، آمراً إياي:

ـ هيا اضحكي الآن.

لكني لم أتمكن بعدها من استعادة فمي للبوح بمشاعري، ولم يسألني الأشخاص ذاتهم ما إذا أردت حقاً الاحتفاظ بصورة تذكارية لي أيضاً دون أن أضطر إلى البكاء في الحمام في كل مرة لأني لا أملك ثمنها كما البقية ممن هم في مثل سني. شعرت بأنه مهما كان وزن الفقر فإني مجبرة على حمله، ولحسن الحظ، لم أشعر بالرغبة في الانتقام.

تسلل الضوء من بين الستارة، وأيقظني. يبدو أنني غفوت من غير أن أشعر!

في انتظار هديل

جلست هناء مرتدية حجاباً وجلباباً من نفس اللون بجوار هديل على السرير، تنتظر استفاقتها بعد أن بدت لها غرفة العناية المركزة في مستشفى أبوظبي المركزي أضيق مما كانت تظن، كل شيء: الجدران والأسقف والأرضية.

دخلت ممرضة الغرفة. أومأت برأسها لهناء وهي تمشي نحو السرير، سحبت يد هديل اليسرى من تحت اللحاف، ووضعت أصابعها على معصمها، أعادت اليد إلى مكانها، كتبت شيئاً على دفتر الملاحظات المثبت إلى السرير، وأجابت كل الأسئلة بجملة واحدة: سيحضر الأطباء قريباً. فيما أخبرت هناء نفسها أن هديل بخير، تنام في المستشفى بدل أن تنام في البيت، وقالت:

ـ النوم هو نوم أينما كان.

حضر الطبيب الأول، توجه نحو هديل، رفع جفن عينها الأولى ثم الثانية، رفع اللحاف واستمع إلى صوت نبض قلبها، داوم على النظر إلى فمها، ضغط بإصبعه على مواضع في جسمها ذي الأعوام التسعة، ثم توجه إلى طرف السرير، وفحص المخطط، سجل وقت الزيارة، وقال:

ـ سنعرف المزيد بعد الفحوصات.

بينما وضعت هناء يدها على جبين هديل للحظات، وقالت:

ـ على الأقل ليست محمومة.

ثم مشت على رؤوس أصابعها محاولة ألا توقظ الأرق. جلست على الأريكة، ضمت ركبتيها حتى مسّتا ذقنها، حاولت أن تجد وضعية مريحة تمكنها من الاسترخاء قليلاً، ورغم تعبها الشديد لم تعرف طريقاً سهلاً للنوم. قررت أن تنهض، وسارت ببطء متناهٍ كما لو كانت تزحف صوب هديل، وبعد أن وضعت يدها عليها، أدركت من رعدة خفيفة سرت في جسدها أنها تبكي، دون أن تسمع صوت أيّ منهما. ثم مسحت على شعرها مراراً وتكراراً، وصلّت أن تستيقظ.

ـ هل يمكنني العبور؟

دخلت ممرضة تحمل صينية بها إناء يحتوي على سائل من موادّ غذائية، وبواسطة حقنة كبيرة مرّرت السائل ببطء عبر أنبوب يدخل من الأنف ليصب مباشرة في المعدة، وانصرفت.

لم يكن بوسع هناء إلا أن تقف مكتوفة اليدين بينما تأخذ كل تلك الإجراءات مجراها، تحاول إخفاء قلقها، وتفرك الغضب براحتيها.

جاء طبيب آخر، شفتاه مشبعتان باللعاب، ويتحاشى النظر إلى باقي وجه هديل، أمر بالقيام ببعض صور الأشعة بعد أن تبين وجود نزيف وارتجاج داخلي بالمخ إثر الحادث الذي تعرضت له صباحاً وهي عائدة من المدرسة، ثم أردف قائلاً:

ـ عودي للمنزل بعض الوقت، لا داعي للقلق، هي نائمة الآن.

ـ لكنها ابنتي!

وشعرت هناء بأن الكلمات تتساقط واحدةً تلو الأخرى بينها وبين السرير، لم تدر كيف تلملمها. حاولت أن تفتح موضوعاً ما معها، تذكرها وهي تزعجها بالأسئلة عن طريقة تكاثر الخفافيش، وتطلب منها أن تخبرها ماذا تتمنى أن تصبح حين تكبر، أن تسمعها تضحك معها مثلما كانت تفعل.

قالت وهي تنتحب:

ـ إلى أين يذهب هذا الجزء مني؟ هيا.. استيقظي.. لأحكي لكِ عن العالم، ونرسم الدنيا بكل ألوانها، لأضحك حين تضحكين رغم حرّ الظهيرة وزحمة الباصات وثقل الحقيبة واحتجاجك على كل ما ورد في الكتب. استيقظي.. لترتدي نظارتك الطبية، ولنغادر الغرفة بلا أي شيء، تماماً بلا أي شيء.

فجأة أطلقت صرخة ما إن شعرت أن يديها لا تلتقطان أي نبض، صارت تركض وتركض منادية بأعلى صوتها:

ـ يا الله.. يا الله..

هذا السعال لا يعجبني!

تشرب أمي دواء السعال كلّ ليلة، ليس لأنها تسعل، ولكن لأنه يساعدها على النوم. استيقظتُ هذا الصباح على سعالها في الغرفة المجاورة. أصبح نفسها أقصر من المسافة التي تربط الفم بالرئة. في هذا الوقت كان أبي ينهي استحمامه على عجل وقد دهمته نوبةٌ من السعال أيضاً، راح على إثرها يكرر ردّة فعله المعتادة: يمسح فمه، يبلع ريقه، يكحّ، يمسح ما سال من لعابه عن صدره..

أبي يتناول السجائر بدلاً من الطعام. يقول:

ـ قليل من النيكوتين لا يضرّ.

وما إن يستنشقه دفعة واحدة حتى يدخل معه عالماً آخر، ويحمرّ وجهه. مرةً شاركتهما بدوري، لكن دون تخطيط؛ خرج الدم من فمي عندما أحسست بنوبة سعال وكبحتها، بينما

سحب أبي سيجارة من علبتي، وهو يعلك شيئاً، ويخرج من صدره سعال جافّ، قالت له أمّي:

ـ عندما تسعل يضيق صدري، وأحس بالاختناق.

من نسعف أوّلاً؟

كانت الشائعات المتعلقة بالحكومة كثيرة جداً. تفجرت أعمال الشغب في أنحاء مختلفة، وانتشرت الفيديوهات الأولى مترجمة بوضوح ما سوف يصير يوميات معتادة في الأيام القليلة القادمة. أشخاص يهربون وهم يحملون علباً كرتونية مليئة بالسلع الغذائية التي سرقوها من المتاجر، وآخرون يجرّون عربات أو صفائح متحركة لنقل الأرائك والأثاث والأجهزة الإلكترونية.

عمّ الغليان في الحارات، وأدرك الجميع مسبقاً أن العصابات سوف تستغلّ الفوضى لتصفية حساباتها مع عصابات أخرى. انتابتهم حالة من القلق دفعتهم لتخزين البضائع والسلع خوفاً من تفاقم الأزمة، وازداد اعتمادهم تلقائياً ناحية اللجان الشعبية التي انتشرت هنا وهناك.

وانتقلت أيضاً عدوى الرعب للرعايا الأجانب، إذ بدأت السفارات بانتشال مواطنيها.

حوّلنا أحد المجمعات إلى مستشفى ميداني لتقديم الخدمات الطبية للمعتصمين. وبسرعة بالغة تم إمداده بالتجهيزات الطبية والأدوية المتوافرة، كما تمّ رفع الاستعداد إلى الدرجة القصوى، حيث تناوبت الأطقم الطبية من كافة التخصصات على العمل فيه.

تقدمنا خطوة، وفاجأتنا رائحة الغاز المسيل للدموع. تقدمنا أكثر. تراءت لنا كل المشاهد قريبة، وتهنا وسط الناس، والشعارات، والأعلام. كان هنالك عدد كبير من الشباب الطموحين، ورواد دائمون ممن فقدوا مراكزهم الاجتماعية وامتيازاتهم. أنباء متعلقة بالموت تتقاسمها النساء الحاضرات بطريقة تجعل الألم يبدو بعيداً، أو على الأقل يمكن التغلب عليه.

وبعد صلاة الجمعة مباشرة حدثت حرب شوارع، واشتباكات دموية ما بين المتظاهرين والقوات الحكومية المختلفة. كانت حرب إبادة جماعية أفرطوا فيها باستخدام القوة، وصوبوا أسلحتهم على الرؤوس مباشرة، قاصدين إحداث عاهات مستديمة. رصاص مطاطي. رصاص حيّ.

صواعـق كهربائيـة. قنابـل مسـيلة للدمـوع. قذائـف مولوتـوف...

لازمنـا أمكنتنـا الخاصـة، وبـدأ النـاس يأتـون إلـى مـكان تجمعنـا، ويذكـرون أمـوراً مخيفـة.

وهناك..

ركضـت باتجاهنـا طفلـة فـي العاشـرة كادت أن تقتـل نفسـها وهـي تفقـد القـدرة علـى التنفـس، قالـت:

ـ نزلنـا مـن سيارة ضخمـة، لهـا لـون موحـد، تعرفينـه؟ انفجـر شـيء بعدهـا، أمـي لـم تتركنـي وهربنـا، أبـي وأخـي بقيـا فـي الخلـف، ثـمّ وقعـا علـى الأرض معـاً، وأنـا بكيـت.

وضعـت يـدي على كتفهـا، وأنـا عاجـزة عـن تقديم أي تفسـير. وحيـن كنـت أبحـث عـن كلمـات مواسـية، سـالت دمعـة علـى خـدي وخذلتنـي. حاولـت أن أتمالـك أعصابـي وكان علـيّ أن أكـذب. بـدا لـي وقتهـا أن الكـذب فـي بعـض الأحيـان ضـروري لتنقـذ حيـاة أحدهـم، وأخبرتهـا:

ـ سأسـتدعي النجـدة، الآن أودّ منـك أن تبقـي بأمـان، أن تبقـي علـى قيـد الحيـاة. انظـري إليّ، لـن نمـوت اليـوم.. أتسـمعينني؟

لكنها كانت قد فارقت الحياة قبل أن تهز رأسها..

وصلتنا حالة أخرى لشاب في الثامنة عشرة، لم أدرك ما الذي أصابه وسط بركة من الدماء كان يجرها خلفه وهو يزحف نحونا. قررت ألا أكذب هذه المرة، أخبرته:

ـ حالتك الآن تتجاوز بوضوح كفاءاتي، وكفاءات هذه العيادة الصغيرة. سوف نحتفظ بك تحت المراقبة الآن، لكن لا يسعني إلا أن أنتظر أول فرصة لمحاولة إخراجك من هنا، وأخذك إلى مستشفى خاص في أقرب وقت ممكن. الشيء الأهم الآن أن أسجل رقم هاتفك على طرف قميصك، متبوعاً باسمك.

أصبحنا نحضّر المصابين للموت، ونهيئ كل الأمور اللازمة إذا ما فارقوا الحياة، وعثر عليهم أحد لكي يخبر ذويهم!

كنا منفعلين ومرعوبين جداً من جراء اكتشافنا أخيراً أن هناك حالات تجاوزت ما توقعناه. وعلى الأخصّ، كنا نشعر بعجزنا إزاء وضع تجاوزنا. كيف كان باستطاعتنا أن نتنبأ بما سيحدث حينما تصل الأصوات، والروائح، والمشاهد كلها بالأحمر الذي يصعب التغلب عليه؟ كيف كان باستطاعتنا والأشياء كلها تملك في داخلها دموعاً؟

صار عليّ أن أكتفي بأن أجعل الجريح أمامي يتوقف

عـن التألـم، وأحيانـاً كنـت أمـدّ يـدي لتلامـس عينيـه فينـام نومتـه الأبديـة. وأنـا، أنـا كان يشـقّ علـيّ التركيـز. فـي رأسـي كانـت الصـور تتدفـق وتختفـي فـور ظهورهـا مثـل ومضـات.

توقفـت لبرهـة كـي أنظـر فـي سـاعة يـدي. شـيء مـا لا أدرك مـا هـو حقّـاً دفعني إلـى ذلـك، حتـى لاحظـت أنّهـا تعطّلـت..

كنت التالية..

الوصول إلى الليطاني

الأشياء تحرّك نفسها أمامي. جسدي يحمي ظهره الحائط، ويغرق في العرق فوق سرير يهتز إلى أعلى وإلى أسفل. أتأكد إن كنت لا أزال في مكاني، أضرب أذني بيدي عدة مرات، أشعر بالتنميل في وجهي وبقشعريرة تشبه لسعة كهرباء.

أحاول الوقوف سريعاً، وأحس بجدران الغرفة تمشي نحوي، أرى الباب يميل بانحراف ويبدو القفل فيه ضعيفاً وبلا حراك، أتفقد النوافذ نصف المفتوحة والعارية من الستائر، وألحظ ما يجري منها. أرى ضوءاً من تحت أبواب الغرف ورؤوساً مطلة تختلس النظر من كل الثقوب المتاحة، تحاول جمع نفس طويل لكنه يتقطع.

أمشي نحو بوابة الدار، أسحب ارتباكي إلى الخارج في الوقت الذي لا يعتري الفضول أحدهم إلا في معرفة من

نجا وبقي على قيد الحياة، أتمكن من رؤية نصف دائرة أو ما شابهها، مبعثرة من أثر الغارة الأخيرة، كانت كشيء يشبه ما يحدث في السينما الأمريكية، ولكن الفرق أن أفلام هوليود لم تنقل ذلك أبداً بالصورة القوية التي أشاهدها الآن بنفسي تنبض باللون الأحمر، البرتقالي، والرمادي.. بقعة بأكملها يبتلعها الدخان الكثيف في بساتين الأطراف الشرقية لمدينة صور، وحقول الأرْز تزحف في خشوع.

تتحرك أردافي بشكل معاكس على بعد سنتيمترات قليلة، تعترض بعض الكلمات طريقي، ورائحة الغبار تسد أنفي. لم تكن الرؤية واضحة في اللحظة الأولى، غليان بشري في كل الزوايا، تهتز العيون بشكل سريع يميناً ويساراً. داس بعضهم على قدمي ودست على أقدام الآخرين، الشارع أصبح موقف سيارات كبيراً، ولا وجود للمتسولين عند الإشارة. شبح الموت يجتاح المدينة، أصوات مقاومة الموت وهمس الملائكة يسمع بوضوح، جثث الضحايا ممددة على الأرصفة بكل مكان، يشاهدون أنفسهم في نشرة الإعادة.

رأيت ظهر صانع العجلات في ثياب داكنة، وجدته جانباً في وضعية من حاول النهوض ولم يستطع، وجهه بين يديه. دخل في حالة غريبة على نحو يجعله يرى، ولا يرى، الورد الذي كان يزرعه لنصف الشارع.

راحت أرملته تركض نحوه، نجت بكل ما فيها، من القشرة البيضاء التي تكسو رأسها حتى أخمص قدميها.

في البداية لم تستطع أن تتأكد إن كان هو زوجها أم لا؛ إذ لم يكن لديه وجهٌ حتى تتذكره. وعندما وصلت ارتطمت حقيبتها برجلي، وأخذت تصرخ وتصيح، وتهز رأسها، وتلوح بذراعيها. نادت عليه، نادت عليه ثانية، لكنه لم يجب.. ثم بكت بشكل يتعذر السيطرة عليه، لدرجة أنها فقدت الوضوح فيما قالت، رحت أقرأ شفتيها، أقرؤهما لأن صوتها ما عاد يخرج.

لم تكد عقارب الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً حتى دخل تطبيق قرار «وقف الأعمال العدائية»، وكانت طرقات الجنوب اللبناني بكل ما فيها من حفر وجسور مدمرة تعج بزحمة سير خانقة، ليبدأ الناس بالعودة إلى قراهم ولف عروسة اللبنة.

أعبر الآن فوق مياه نهر الليطاني، ضوء النهار يتسلق بحزن أسطح البيوت المجاورة، أتلفت يميناً ويساراً، إلى الأعلى وإلى الأسفل، لا شيء حولي. الآن.. أصبح المشهد كله لي، وأعرفه تماماً.

طينة زوجتي السابقة

الحصـول على حمـام دافئ يفعـل معـي المعجـزات.. أنغمـس فـي المـاء السـاخن، أنظـف مـا بيـن أصابعـي، خلـف رقبتـي، تحـت ذراعـي، وصـولاً لـكل طـرف يحملنـي، أنفـض عنـي الطقـس البـارد وتفاصيـل ليلـة أمضيتهـا مدعيـاً أنـي نائـم. كنـت أفكـر فـي تلـك السـاعة التـي أردت أن أبـدأ بهـا حيـاة جديـدة.. ومثلمـا أصبـح عنـدي بيـت، صـارت لـي زوجـة أيضـاً أخـذت الحيـاة الزوجيـة بجديـة منـذ بداياتهـا.. لـم تنجـب وظلـت دومـاً متوتـرة.

أعتقـد أنـي بحاجـة لفنجـان قهـوة مُـرّة قبـل أن أبـدأ بإتمـام الأعمـال المجدولـة لـي كمـا كل صبـاح، إمـا تنظيـف الأرضيـات وتشـذيب الزهـور والحشـائش وإزالـة الأوراق الميتـة، أو تنظيـف بركـة السـباحة وبعـض أعمـال السـباكة والصيانـة البسـيطة.

توجهت إلى المطبخ حيث كانت إلبا ترتدي اللون الأسود كما في كل يوم، لم أعرف يوماً فيمن تعزي؟ تقشر بعمق كبير الذرة الجافة، وتخزن الطماطم الكرزية في جرار زجاجية. يبدو أنها استيقظت اليوم أيضاً مع شروق الشمس وأنهت تسوقها. تحب التسوق في فترة التنزيلات، تبذل جهداً، وتجوب المدينة لتشتري كيلو الفجل بسعر أقل، تغسله كما كل الخضراوات والفواكه بمسحوق مخصص قبل أن تضعه في الثلاجة.

حضَّرت القهوة لنفسي، وجلست بوضعية غير مريحة تاركاً مسافة كرسيين بيني وبينها، بينما أخذت تحدق بطاولة الطعام، وتفرك بأصابعها نقطة ماء من حزّ بطيخة كنا قد تناولناها مع جبن الحلوم على العشاء الليلة البارحة.

ـ عليك أن تأكل فاكهتك، وتعصر خضراواتك، تناول الأطعمة التي تجعلك بصحة جيدة.

كل شيء عندها له فائدة صحية ما، تقول:

ـ كل الطعام الطيب يأتي من الأرض.

تظاهرت بأني لم أسمع شيئاً، وأكملت فنجاني وأنا أتساءل: بماذا يا ترى يفكر عقلها الصغير الآن؟

ـ وراء كل مطبخ هناك مجلى متسخ.

أخذت تتمتم بينما راحت تفتح صنبور الماء على المقلاة، تغسل الصحون والملاعق المتسخة، وتكدس عند طرف المجلى بقايا الوجبات في علب لها أغطية مختلفة.

شعرت بضرورة الانسحاب من المطبخ المنظم والطعام الصحي، تأكدت من أني أحمل ما يكفي من المحارم الورقية في الجيب العلوي للقميص الذي أنوي ارتداءه، ومن أن منبه ساعة اليد التي اخترتها مضبوط على التاسعة مساءً.

ـ إلبا، هل هناك ما تريدين مني القيام به؟

ـ عانقني قبل أن ترحل، ولا تتأخر في العودة مساءً يا واسيني!

أتركها في حالة لا تفسر، وأتجنب التفكير في الأسباب التي جعلتنا نستغني عن بعضنا بهذه البساطة.

في المساء، خلال الرحلة الطويلة إلى البيت أبدأ بامتصاص اليوم كله إلى داخلي.. كانت إلبا في غرفة الضيوف تتابع ما كانت تفعله قبل أن أصل. وجدتها تحمل خرقة وتمسح غطاء الأريكة، تنفض عنه الجلد الميت والشعر المتساقط وتفرط في تعقيمه، وصولاً إلى تصفيف الوسائد عليه، ثم تغلق

الضوء على حجرة متقنة الترتيب حيث الأثاث يبرق لشدة ما فرك. كل ليلة تعيد نفس الكرة!

ـ ربة بيت مثالية، أليس كذلك؟

ـ كأنك دائماً على موعد!

قلت بكل ما استطعت إبداءه من تفهم. مطت شفتيها وراحت ترمقني بنظرتها الخاصة، وقد تفاجأت بلون عينيها، كانتا غير مريحتين أبداً.. يا ساتر!

ـ منذ متى ترتدين النظارات؟

ـ منذ الآن لأتمكن من رؤية الأشياء الصغيرة.

وراحت تمرر إصبعها فوق صورة تجمعنا بحثاً عن نقطة غبار تزعجها، كانت حساسيتها تجاه تلك الرائحة مثيرة للانتباه.

لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً! وضعت يدي على قلبي وأنا أضحك قائلاً:

ـ يا رب عفوك.

لو كنت في حالتها لفقدت صوابي، لا فضلات طعام، لا دهون عالقة، لا ستائر مشبعة بالغبار. وبالطبع لا شيء يفسد

أو يتعفن قبل وقته. بدا كل ذلك في نظري مضجراً إلى أقصى حد.

ـ فكّري بالأشياء التي تحبينها بدلاً من ذلك.

بدأت بالصراخ، أخذت أسنانها تصطك، وتتحول بشرتها حول فمها إلى الأحمر.

ـ وذلك الغسيل؟ إذا ترك على هذا النحو فلن يكون سوى كومة من الفضلات. يجب أن يكوى ويطوى ويوضع في الخزانة. عدا عن غرفة النوم التي تبدو دائماً مثل نهاية اليوم في آخر فرصة للتنزيلات بمتجر ما مع أحذيتك المبعثرة في كل مكان! هل تمانع من ترتيب أغراضك قليلاً؟ أن يكون المكان لمرّةٍ نظيفاً، وكل شيء في مكانه!

ها قد بدأت عزفها اليومي على طبلة أذني، أنسحب قائلاً:

ـ النغمة ذاتها!

في غرفة الجلوس، حضرت الأريكة كي أنام عليها، بينما لحقت بي، ووقفت أمامي بشخصيتها القوية وملامحها التي تجمع بين الصرامة والخجل، بينما رحت أتفحصها متأنياً بعيني من قمة رأسها إلى مختلف مواضع جسمها، شعرها، خديها، شحمتي أذنيها.. ثم حاولت أن أستذكر ما كنت أشعر

بـه عندمـا كنـا معـاً. اليـوم، بعـد أعـوام قليلـة مـن الـزواج أشـعر بملـل يفـوق أي شـيء شـعرت بـه مـن قبـل، وأعـرف فـي داخلـي أنـه مـن المسـتحيل أن أسـتمر مـع زوجـة تريدنـي ابنـاً لهـا، زوجـة لـم تسـتطع أن تلمـس قلبـي، لـم تنجـح فـي تحسـس نبضـي.

ـ ما الذي تريدينه بالفعل يا إلبا؟

ـ أريد أن أعرف أنكَ تقدرني يا واسيني!

ـ وأنـا أريـد منـكِ أن تتحدثـي معـي، لقد مـرت الشـهور الباردة بيننـا، سـاد الصمـت، ولـدت التسـاؤلات، الكثيـر الكثيـر منهـا.. كنـت أود أن نكـون سـعداء كمـا كنـا فـي العاشـر مـن نوفمبـر!

أسـندت ظهـري وأخـذت نفسـاً عميقـاً مـن هـواء الحـزن الـذي رأيتـه يحيـط بـي وبهـا، كنـا مثـل كائـن عنيـد يحـدث كائنـاً عنيـداً آخـر.

ـ إذا كنت لا ترغب في تكوين أسرة، فالخيار أمامك الآن.

صـار علـيّ مواجهـة امـرأة غاضبـة تهددنـي علـى الـدوام بالرحيـل، أجبتهـا:

ـ أيمكنكِ منحي أكثر؟

صاحت:

ـ يا رب!

ـ أنتِ بالذات لا أريدك أن تفقدي أعصابك. أعرف تماماً كيف تصيرين عندما تفقدين أعصابكِ.

اتجهت نحو غرفة الملابس، وألقت حقيبة يد على الأرض، بدأت في وضع ثيابها من الخزانة، وكل ما تستطيع أن تبتلعه بداخلها.

في الحمام، أخذت تجمع علب الديتول المخفف بالماء، دسّت أيضاً صحن الصابون، ومقصّ الأظافر، ومعجون الحلاقة الخاصّ بي. ثم مرت أمامي وانتزعت حبة فستق من بيتها تحملها يدي. أخذتها هي أيضاً، ورمت بكل الأشياء الأخرى الجديدة في صندوق النفايات القريب، بينما أخذت تنقل الحقيبة من يد لأخرى، حتى قررت احتضانها تحت ذراعها متجهة نحو الباب الخارجي للمنزل. توقفت فجأة، والتفتت نحوي مشيرةً بسبّابتها نحو الثريّا قائلة:

ـ أمر أخير، كم تريد مقابلها؟

أتعبني دور المخلصة

الإثنين 20 ديسمبر 2012

إلى الرجل الذي يكبرني باثنتي عشرة سنة..

إنها الثانية ظهراً من يوم مضجر، أكتب فيه إليك بعد نحو عامين من الانتظار. حقيقةً لم أكن متأكدة إن كنت مازلت تحتفظ بصندوق البريد ذاته، ولأكون أكثر صدقاً، لقد خمنت ما يزيد عن عشر مرات لأتذكر أرقامه الأربعة، حتى استسلمت لطلب المساعدة من مكتب الاستعلامات هنا في بريد فاس. تخيل أنهم تجرؤوا على نبش ذكرياتنا كلها، على نحو يكاد لا يصدق، وبسطوها أمامي فجأة، هكذا ودون سابق إنذار قال لي الموظف:

ـ هل تقصدين الرمز 9360 التابع للسيد XXXX في كامبالا؟

لا أعلم لم استقبلت رده كلطمة على الوجه، وفي لحظة أخذت أحسب المسافة التي تفصل بيني وبينك، وكأني أدركت للتوّ فقط، أنها كثيرة، أكثر مما يمكنني عدّه وحدي، وأجبت:

ـ أعتقد بأنه هو.

ـ تعتقدين؟

ما الذي لا يزال يفعله هناك؟ ذلك هو السؤال. ثمّ شددت من بين أصابعه تلك القصاصة، ودفعت بقدمي للتحرك بي نحو الكراسي المقيمة في أطراف المكان، انتزعت هذه الصفحة المسطرة من الجيب الخلفيّ لسروالي. في الحقيقة ستلاحظ إذا ما استلمتها ما كتب على ظهرها، إنه ناثانيل، لا يكف عن كتابة الرسائل الصباحية إليّ قبل أن يخرج كل صباح للبحث عن عمل، عادته منذ أن تزوجنا قبل شهرين. نعم، «لقد تزوجت»، هذه الكلمة التي ترقد تحت لساني، أعرف أنها تجعلك تتقزز، لذلك أحاول الآن بصقها مرة واحدة.

أمورنا مشت مقلوبة! رقص، وفراش، ثم تبادل أسماء. كان من المثير معرفة معنى اسمه، الأمر الذي اعتبرته في الوهلة الأولى إشارة جيدة لما ستقوله عنا النجوم لاحقاً. في البدء كان الأمر رائعاً بالنسبة لي. الثرثرة مع غريب عن كل شيء

وعـن أشـياء غيـر مهمـة، إيجـاد اهتمامـات مشـتركة مـع شـخص يخبرنـي بالحقيقـة ويضحـك بشـأنها بصـوت عـال، كانـت منطقـة جديـدة جـداً بالنسـبة لـي، أقـرب لأن تكـون مغامـرة.

فـي منزلنـا معـاً، كان هنـاك ترحيـب دائـم فـي تجربـة الأشـياء، والسـماح لبعضنـا البعـض فـي الفشـل وفـي أن نكـون متحمسـين فـي التحـدث دائمـاً حـول مـا ارتكبنـاه مـن أخطـاء سـابقة. شـعرت بأنـه يحبنـي، وبأننـي أعيـش أيامـي أخيـراً وبجانبـي مـن يهتـم حقـاً لوجـودي. لكـن الجـزء الأصعـب كان ملاحظتـي وأنـا أتغيـر دون أن أنفصـل عـن علاقتـي السـابقة بـك. وجـدت نفسـي أقـوم بإجراء المحادثـات مـع الكثيـر مـن الذكريـات الماضيـة، وأسـترجع معهـا جـدالات سـابقة. وجـدت نفسـي أيضـاً أفكـر بـك مـراراً، وأتذكـرك ببسـاطة كشـيء خـاصّ بـي.

وبعـد أن قبلـت الـزواج بناثـي دون تـردد، كان علـيّ فقـط أن أختلـق لنفسـي عـذراً مناسـباً للوقـت الـذي سـأقضيه وحـدي أتخيلـك، لأنـه كان لـدي شـعور غريـب، ولكنـه ثابـت، أننـي وأنـت لـم نفتـرق لأكثـر مـن يومين اثنيـن فقـط. وبعـد أن تحولـت مـن آنسـة إلـى سـيدة، وانتفـخ فخـذي. لـم تخبرنـي هـذه التجربـة عـن أي أمـر جديـد، لكنهـا وحسـب سـاعدت فـي مـلء بعـض الفراغـات وتأكيـد بعـض الانطباعـات، وتقديـم تفاصيـل مخبـأة لـم تظهـر لـي مـن قبـل.

في الليل، عندما يطفئ الأنوار وأنا في السرير، يكون الأمر صعباً بالنسبة لي بأن أكون في مكان واحد، يبقى جسدي هادئاً تماماً، تتوقف مقلتي عن التحرك دون أن أرمش، يخرج مني لساني وهو شبه ممدود، وألهث دون وعي مني. دقائق معدودة أنتقل فيها لجسد آخر، أراقب فيه كيف يتضاءل حجم الأشياء في طريق جبان جداً، وأقول بداخلي إنه مجرد قصة إضافية أحكيها لنفسي.

كما تعلم، لم أؤمن يوماً بالندم، ربما كانت أشياء أخرى مقاربة للأمر كالخيبة أو الخسارة، وزواجي بالطبع لم يكن أذكى قرار اتخذته على الإطلاق. على أية حال، أردت أن أخبرك وحسب أننا نخطط للانتقال والعيش بمسقط رأسه في ياوندي، لا أعرف مقدار المسافة التي تفصلني عن المكان الذي أتوجه إليه، وليس لدي رغبة بخلق تصور عن ذلك. بدأت بالفعل بتعلم اللغة الكانورية، وقرأت الكثير عني بعقول ماري كلير ماتيب وكاليكث بيالا، عرفت منهما أن الملونين يظنونني مختلفة، والبيض يجدونني مسلية. كما أنني أتقنت إضافة أوراق الندولي إلى العديد من الأطباق على نحو يكاد يكون غريباً لكل من كان يسمعني أتأفّف من مهمة إيقاظ عيون الفرن الكهربائي.

آه، لا بد أني سأترك ورائي أشياء كثيرة، كيف سأجمع

عشرين عاماً في صندوقين؟ الملابس التي أفضلها، أحذيتي التي تتشابه كلها بلونها الأسود، حقائبي التي لم أستخدم منها إلا واحدة حتى اهترأت، أوراق العمل الذي تركته منذ وقت طويل، الآية من الكتاب المقدّس على الجدار، والكثير من الأشياء التي لا جدوى لها. أعلم أعلم، أن أولى الخطوات هي أصعب الخطوات، لا شك في ذلك، وأن توديع الأحذية الكثيرة هو بداية جيدة للغاية، لكني في الوسط، في الوسط الذي تعرف أنني لا أستطيعه.

لم أتغير، بوسعي أن أحكي عن كل شيء، بوسعي أن أحكي للأبد، ماذا عنك؟ كيف كانت سنواتك الماضية؟ هل مازلت تجتمع بصحبة كؤوس الماحيا هاتفاً ليوفنتوس ضدّ ليفربول؟ كنت أفكر، كيف يمكنني أن أخبرك كم تعني لي؟ إني أفتقد أيامنا السابقة معاً، تلك الليالي التي كنا نجتمع فيها ونقهقه بلا سبب، حين لم يكن فارق العمر بيننا يشكل لك أية سحابة سوداء، وقبل أن تخبرني أني صغيرة جداً بشكل غير معقول بالنسبة لك. السؤال عن المرة الأخيرة ما غاب عن بالي لحظة واحدة لغاية الآن.. ترى كيف كانت قهوتنا الأخيرة؟ مصافحتنا الأخيرة؟ عناقنا الأخير؟ رصيفنا الأخير؟ والأسوأ من هذا كله.. النظرة الأخيرة في آخر مرة رأيتك فيها.. تلك الضحكة الصغيرة التي تشبه المغفرة تطلقها

وأنت تحملني على أصابع قدميك، كيف كانت؟ لم أكن أعلم حينها أنها ستكون المرة الأخيرة لنا، من غير أن تفسر لي، أن تمنحني أي تبرير، أن تقول على الأقل: أنا آسف.. ألا تعتقد بأنني كنت أستحق أن تقول لي لماذا؟ وإلى أين؟ وإلى متى؟ هاه، يبدو أني الوحيدة التي لا تكبر مع السنوات!

لا أريد أن أقول إنك كذبت علي.. لكن في الأمر شيئاً لا أفهمه.. لقد كانت قبلتي الأولى، وشعرت أنها قد فسدت. كانت مرتك الأولى مع فتاة تعيش أولى مراتها، هل فهمت؟ لا يمكنك إطفاء هذا كله في غربة واحدة. أعني كيف يمكن للمرء أن يتحمل انتظار شخص لا يأتي؟

ألتفت حولي فلا أراك، ويزداد خوفي حين تفاجئني نبرة صوت تشبه الحرارة في أفريقيا مستبدلة اسمي بكلمة: بيبي!

قليل من الشجاعة أيها الجبان.

في الطريق إليكِ

في المرة الأخيرة، انقلبت على بطنك، أصبح وجهك قريباً من وجهي وأنا أحتل أجزاء من مكانك على الفراش، أستنشق أنفاسك وأتذوق كل حرف. تحدثنا عن كل شيء ولم يبق في جعبتنا أي كلمة. كنا نضحك كثيراً، كما نشعر بالسعادة، وكنا في عيد. أرخيت ثقل جسدك عليّ، واستراحت أطرافك على كتفي، قلتِ:

ـ أيها الأرنب عانقني.

غرقت عيني في عينيك لأجزاء من الثانية، لحظات انتظرت أن أمتدّ فيها عميقاً قبل أن نلتحف بذراعي بعضنا وننعم بذلك السكون الذي يكون عليه أوّل الحب. كنت أستطيع أن أسمع نبضات قلبك من مكاني وعيناك نصف مغلقتين. أنزلت يدي قرب يديك، وفصلت ما بين أصابعكِ،

وفي اللحظة التي مرت فيها أطرافك على ذقني المهمل واستقرّت فوق المساحة المكوّرة بين الشفة وأرنبة الأنف، عشنا لحظة ارتباك جميل.. همست في أذني:

ـ ليكن ليلنا وعداً.

وغرقنا في قبلة طويلة.. ثم واصلنا تيهنا ونحن نرمم طيننا الخاص.

كم من الوقت غفوت بعدها؟ وكم من الوقت قضيت محدقاً فيك؟ صدّقيني.. لست أدري.. إلى أن رقصنا على السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، ذهبنا للمكان الذي يذهب إليه عازف الكمان عندما يغمض عينيه، ووعدتك ألا يعلم أحدنا بسرنا.

أحببتني بطريقتك الخاصة، وأنا يا شامة.. أحببت معك ألوان السماء كلها لحظتي الشروق والغروب، ثم المدينة، ثم الحيّ، ثم الشارع، ثم الدكاكين والعاملين بها، ثم الجيران الذين لم أطرق بابهم للتحية مرة واحدة، ثم قهوتي التي أشربها باردة بلا سكر، ثم المشي لمسافات قصيرة وأنا أصف كل الألحان تقريباً كأنها لحني المفضل، والاستسلام لبائع ورد يصرّ على أن أكون زبونه في مشاويري القريبة.

وفي كل مرة.. في.. كل.. مرة.. أشتري منه الأوركيد التي

تحبّينها لأخبركِ أن الشوق قد تمكن منّي في الطريق إليكِ، وأنه إن أمسكت بيدي الآن الآن.. سيتغيّر كل شيء.

لكني أتجمد أمام البوابة العتيقة التي تقودني قدمي إليها، أقرأ بشفاه راجفة ما كتب عليها، وأعرف لأول مرة كما كلّ مرة أنك قد رحلت، وأن العالم بأسره قد أدار ظهره لي.

لا وقت لي

أنا أكثر سعادةً الآن مما كنت عليه لأعوام مضت. أنا سعيدة الآن كما تمنيت دوماً أن أكون. أفتح ستائري لألقي نظرتي الأولى على النهار، أرى شروق الشمس في أبهى حالاته، أقف على أطراف أصابعي، أشدّ جسدي كله وأتمطّى ما استطعت، أجد الكثير من الأمور المدهشة، شعوري بأقدامي على البلاط، شعوري برئتيّ تتّسعان وتبتلعان الهواء الذي أتنفسه، آه.. ما أحلى الانطلاق!

وجهي متوهج، وشفتاي تضجان بالحركة، أرسم خطاً جانبياً أسود على امتداد جفني، أرتدي تنورة بلون الحامض، ألصق ذراعي بجنبي، وأمتصّ عميقاً نعمة العيش.

بوسعي أن أعلن دون قلق أنني لم أثر بعد، وأنني بحاجة لوقت طويل لتحقيق ذلك، لكني أعيش مستورة، لا ديون

علـيّ، ولا أنـوي الاقتـراض، ولا أحتـاج شـيئاً. الجـو مناسـب لهـدف آخـر لا ينطـوي علـى المجازفـات، دون أن أوجـه انتباهـي بنسـبة مئـة بالمئـة لشـخص آخـر.

أهـا.. لا أحـد يسـتطيع العيـش دون مشـروع جديـد أيـاً كان نوعـه.. أنظـر إلـى سـاعتي وأجدهـا التاسـعة فعليـاً، أريـد أن أقـوم بمـا يفتـرض بـي القيـام بـه، ثمـة وقـت كافٍ، لا أحتـاج دائمـاً إلـى جناحيـن لأنجـز أعمـالاً مهمـة، ولا أرضـى لنفسـي أن تفقـد اسـتقلاليتها وأن تعتمـد علـى أحـد.. أحـاول كسـب الوقـت: دقيقتيـن، ثـلاث دقائـق.. أثبـت رأسـي علـى كومـة مـن الـورق، أجمـع مسـوداتي المبعثـرة بيـن محاضـرات ودروس العلـوم السياسـية، والمقـالات الفكريـة. أرتـب الملفـات، أقـرأ كل مـا تقع يـدي عليـه.. لا شـيء يسـتحقّ أن أضحـي بمسـتقبل كافحـت كثيـراً لبنائـه، وأنـا أعنـي مـا أقـول.

أوه، لدي الكثير من المكالمات الفائتة!

ـ ألـو، نعـم.. نعـم.. لا.. لا تأخـذ وقتـك فـي الحديـث، أنـا علـى عجلـة مـن أمـري!

ينتهـي الاتصـال علـى كلام مختـزل، المعلومـات المهمّـة فقـط، دون حـوارات هامشـية، أو مجامـلات.

يـرن الهاتـف مـرة أخـرى، أبقـي السـماعة مرفوعـة علـى

ظهرهـا، وقتـي لـن يتسـع لذلـك.

أمـارس عملـي بشـيءٍ مـن الجنـون، أنجـز مهامـي بكثيـر مـن الشـغف.. أنـا فـي مرحلـة البحـث عـن طريـق لـي، لـي وحـدي تمامـاً، أنـا محظوظـة لأنـي لـن أكـون المـرأة نفسـها التـي كنـت عليهـا صبـاح البارحـة.

الدقائـق تمـر، السـاعات تمـر، عقـارب السـاعة تتجـه نحـو الظهيـرة، اعتقـدت أننـي لا أسـاوي شـيئاً بـدون وجـود رجـل، هههههههههـه !

أفـرغ صنـدوق البريـد الـوارد مـن رسـائل لا يعـرف طريقهـا سـاعي البريـد، أصنفهـا وأرتبهـا كمـا ينبغـي، وأمتـدّ فـي أعمـاق لحظـة قـراءة الرسـالة الأخيـرة التـي أُرسـلت للتـو:

«تعال، واعتذر عن قدومك دون موعد».

هروب سهل

لـم تتعلـم الحـبّ المناسـب، ولذلـك كان أول رجـل أحبّتـه يكبرهـا باثنتـي عشـرة سـنة. وآخرهـم، هـو نفسـه، لكنّـه هـذه المـرّة كان يصغرهـا بثمـانٍ وثلاثيـن خطـوة.

بلا مسمّيات

لـم يكـن فـي نظـري، عشـيقاً، كمـا لـم يكـن زوجـاً أو رفيقـاً للعمـر، بـل كان شـخصاً مجـرداً، لا يجمـع بيننـا مـاضٍ ولا مسـتقبل ولا قصـة نمـوت فـي نهايتهـا معـاً.

في لحظة واحدة

أخـذت ليلـي الخـاص، وتَبِعتُـكَ، لأنـي شـعرت بثمـارٍ تنمـو تحـت ثيابـي..

ثم كبرت، ووصلت إلى آخر العمر.. في لحظة واحدة..